الكاتب: عبد العزيز احديبي
أستاد باحث بسلك الدكتوراه ، كلية الآداب والعوم الإنسانية ابن زهر أكادير، المغرب
البريد الالكتروني: Abdelaziz.ahdibi@gmail.com

عنوان المقال: **الغريب والعجيب في المجاعات التي ضربت المغرب ما بين القرن الخامس عشرونهاية القرن التاسع عشر.**

تاريخ الإرسال: 2019/02/15 **تاريخ القبول:** 2019/06/15 **تاريخ النشر:** 2019/12/31

الغريب والعجيب في المجاعات التي ضربت المغرب ما بين القرن الخامس عشرونهاية القرن التاسع عشرونهاية القرن التاسع عشر.

الملخص بالعربية:

عانى المغرب طيلة تاريخه من موجات متكررة من المجاعات والأوبئة خلفت نتائج كارثية على بناه الاقتصادية والاجتماعية، والديمغرافية . يسلط هذا المقال الضوء على إبراز بعض الظواهر والسلوكات العجيبة والغريبة التي صاحبت المجاعات المتكررة التي ضربت المغرب من القرن الخامس عشر الى نهاية القرن التاسع عشر، فبسبب الجوع كان الانسان المغربي يظطر الى أكل النباتات، والجراد، وأكثر من ذلك أكل الميتة، وأكل البشر، ومن الغريب أن أزمة الضمير هاته جعلته يبيع أقاربه وحتى نفسه ويجعل من نفسه عبدا في خدمة غيره، أو يتخلى عن دينه مقابل كسرة خبز .

كلمات مفتاحية:

الكلمات المفاتيح : المجاعة، الجفاف

Abstract :

Abstract:Throughout its history, Morocco faced successive famines that resulted in disastrous effects on its economic, social, and demographic infrastructures. the aim of this article is to shed light on some of the weird and strange phenomena and behaviours which were witnessed during those frequent famines that struck Morocco between the fifteenth century and the end of the nineteenth century.

Key words : famine, drought

عرف المغرب عبر تاريخه موجات من المجاعات والأوبئة العنيفة، والمدمرة التي ضربت البلاد والعباد، وخلفت نتائج كارثية على مستوى بنياته الاقتصادية والاجتماعية وأيضا الديمغرافية، وكان لها وقعا على المستوى السكولوجي والذهني .

لقد ساهم موقع المغرب الجغرافي، وتواجده في منطقة تتميز بسيادة مناخٍ جاف، وشبه جاف ماعاد المنطقة الشمالية التي تتميز بمناخ رطب نوعا ما في تعرضه المتواتر لموجات الجفاف التي تدوم لسنوات نتيجة انحباس المطر، مما خلف جفاف الآبار، والعيون، وتراجع الوديان، وبالتالي قحولة الأراضي، وما نتج عن ذلك من تراجع المحاصيل وانعدامها وبالتالي، حدوث المجاعة .

ولعل ما زاد الأوضاع تأزما هو استعمال وسائل الإنتاج تقليدية، وبدائية وانتشار الملكيات الصغيرة، مما جعل الفلاحة(النشاط الرئيسي)، والفلاح عرضة للتقلبات المناخية، والخضوع لسلطة الطبيعة، التي لا تنفع معها كل الأساليب المبتكرة لرد القدر الذي لا رد لهفي ظل ظروف سياسية سماتها العامة عدم الاستقرار إلا مؤقتا . فيقصد المواطن الأولياء بمختلف درجاتهم، ومكانتهم، والزوايا، ويصلي الاستسقاء لمرات دون جدوى[2]، ليواجه مصيره المحتوم؛ أي مواجهة القحط، والاقتيات على النباتات وغيرها أو الموت جوعا.

وقد خصص العديد من المؤرخين كتابات اهتمت أساسا بالمجاعات والأوبئة التي اجتاحت المغرب في مراحل وأزمنة مختلفة، منذ العصور الوسطى، مرورا بالقرنين السادس عشر والسابع عشر، في دراسة برنار روزنبركي وحميد التريكي، والدراسة القيمة للمرحوم لمحمد الأمين البزاز حول مجاعات وأوبئة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وغيرها من الكتابات والمقالات الأخرى، وقد فصل أصحابها في شرح هذه المجاعات والأوبئة، ومظاهرها، وماتخلفه من نتائج على جميع المستويات، الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية والديمغرافية والسيكولوجية .

ليس هدفنا إعادة ماجاء في هذه الدراسات، والحديث عن الأوبئة والمجاعات فهذا عمل أنجز في جزء كبير منه على الأقل في الفترات التي تناولتها البحوث المذكورة، وما نسعى إلى إبرازه يقتصر على بعض الظواهر والسلوكات الغريبة والعجيبة التي تصاحب هذه الأزمات والتي اكتفت الدراسات بالإشارة إليه في نقط عابرة، وبشكل سريع ونود إبرازها.

نشير بداية أن فترات الأزمات هذه، كانت تبرز بعض الممارسات غير المتوقعة، والغريبة في المدن، والأرياف المغربية، وهي نتيجة لهذه الأزمة نفسها، وإجابة اضطرارية عنها، تبين الوضع المأزوم الذي وصل إليه الإنسان خلال هذه المرحلة الصعبة .

عرف المغرب في هذه الفترة موجات متكررة من المجاعات المدمرة، التي عمت مختلف بقاع البلاد، ولم تسلم منها أي جهة، ويمكن أن نعطي عنها لمحة تاريخية مختصرة : "فمن سوء حظ مغاربة القرن السادس عشر، تزامنت هذه الفتن مع فترات طويلة من الجفاف والمجاعات.لقد عرف ذلك القرن(السادس عشر) إحدى عشرة سنة من الجفاف نذكر منها سنوات: 1511و1517و1519و1520و1540 . ولم يكن القرن التالي أحسن حالا إذ عرف في المجموع 27 سنة بدون مطر.وكانت المجاعات والأوبئة وموت الإنسان والأنعام أهم نتائج تلك السنوات العجاف الطويلة[3]. وهذا جدول يلخص أهم موجات الجفاف والمجاعة خلال الفترة موضوع المقال:

جدول رقم 1: جرد للجفاف والمجاعات التي ضربت المغرب من القرن 15 الى نهاية 19 م[4]

السنة	نوع الجفاف وبعض مخلفاته	المناطق التي تعرضت للجفاف	المصادر التاريخية
1496	جفاف،قحط،، وباء الطاعون	مجموع البلاد، وواحات الجنوب	A.G Martin+ CH.Bois
1519-1522	جفاف قوي، مجاعة ووباء	المغرب، اسبانيا، البرتغال	أحمد الناصيري
1541	جفاف وقحط	مجموع المغرب، الجنوب المغربي	هنري دي كاستري، إبن عسكر
1552-1553	جفاف كبير	تادلة، الحوز، سوس، فاس ونواحيها	إبن عسكر، CH.BOIS اعتمادا على وثيقة لأحد يهود فاس
1579	جفاف قوي، مجاعة، وباء	سوس والجنوب الغربي	محمد اليفراني، أحمد الناصري
1603	جفاف، مجاعة، وباء	مجموع البلاد، فاس ونواحيها	الناصري، الموسوعة الاستعمارية
1607	جدب وقحط	مراكش والنواحي	السعدي(مؤرخ

			سوداني)
1608	جفاف حاد، قحط، وباء الطاعون	التوات وجنوب البلاد	A.G Martin+CH.Bois
1613-1614	جفاف كبير ومجاعة	فاس وسائر أنحاء البلاد	L .Raynaud
1626-1628	جفاف قوي، مجاعة وباء	مراكش وسائر أنحاء البلاد	هنري دي كاستري، محمد اليفراني
1634-1635	جفاف وقحط	مجموع المغرب	القادري (نشر المثاني)
1649-1650	جفاف وقحط	مجموع المغرب	القادري، محمد اليفراني
1651-1653	جفاف، قحط، غلاء الأسعار	مجموع المغرب	القادري، دي كاستري، اليفراني
1661-1662	جفاف، مجاعة مفجعة	فاس، مراكش، جل أنحاء البلاد	القادري الزياني، الناصري، اليفراني
1680	جفاف	مجموع المغرب	القادري، الناصري، المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب
1682-1683	جفاف قوي	جل أنحاء المغرب	القادري، الناصري
1719-1724	جفاف حاد، مجاعة، وباء	فاس، الجديدة، مراكش، الجنوب	الزرهوني، CH.Bois
1735-1737	جفاف، مجاعة، وباء	سائر بلاد المغرب الأقصى	أحمد الناصري
1750	جفاف، مجاعة، وباء الطاعون	سائر أنحاء المغرب(سوس)	الزياني، أحمد الناصري
1776-1782	جفاف ومجاعة لمدة سبع سنوات	معظم أنحاء المغرب	الزياني، أحمد الناصري
1789-1794	جفاف متوسط الحدة	المغرب	بعض الكتابات الأوربية
1798-1804	جفاف، قحط شديد، طاعون	المغرب	محمد الأمين البزاز

1817-1820	جفاف، قحط، مجاعة	جل أنحاء البلاد	الناصري، محمد الأمين البزاز
1824-1825	جفاف، مجاعة	جل أنحاء البلاد	الناصري، محمد الأمين البزاز
1836-1838	جفاف حاد، وغلاء المعيشة	المغرب	Drummond Hay
1849-1851	جفاف ومجاعة	المغرب	الناصري، محمد الأمين البزاز
1859-1864	جفاف قوي ومرعب	فاس وجل أنحاء البلاد	A.Mouliéras:"Fes en 1900"
1877-1882	جفاف مرعب وقوي، مجاعة، وباء	أغلب مناطق المغرب	أحمد الناصري، محمد الأمين البزاز
1893-1892	جفاف وجدب	جل أنحاء البلاد	محمد البزاز Ch .Bois
1899-1900	جفاف	المغرب الشرقي، سوس	Ch .Bois

أكل النباتات، والجراد

بعد اشتداد المجاعة، وارتفاع الأسعار وقلة المواد الغذائية، يضطر الجوعى إلى البحث عن سبل بديلة لمواجهة الجوع، وضمان البقاء حيث يعملون على اقتيات ماتم تخزينه، وبعد نفاذه يلجؤون الى النقص في عدد الوجبات، ليصلون الى مرحلة لا يتحملون فيها الجوع ، فيقصدون الغابات والسهول بحثا عن جذور النباتات، يقول أحمد الناصري"وفي هذه السنة أيضا (1266هـ)، كان الغلاء الكبير والجوع المفرط وكان أكثره بقبائل الحوز من ابن مسكين، وعبدة، ودكالة وغيرهم، فأهرعت هذه القبائل إلى بلاد الغرب والفحص وأكلت الناس الجيفة، والميتة، والنبات وصار يعرف عند أهل البادية بعام الخبيزي وعام يرني" [5]، ولم يكتفِ الناس بأكل إيرني، بل كذلك البلوط والبقول والبسباس والكرنينة- التي تقطف حتى في السنوات التي لا يمسها القحط،، من أجل تنويع المحصول المعتاد – ولب النخيل الصغير [الجمار] المسمى "papmito " في النصوص البرتغالية، فضلا عن الخروب [6] وكذلك الخروب، والترفاس،واللفت المحفور، والكلخ، والخردل[7] بالإضافة إلى الحميضة، وثمار العرعار، والثمار الفاسدة....

كما أقدم الناس على أكل الجراد، الذي يصبح من الأكل الشهية في بعض المناطق حتى في أوقات الرخاء، حيث كان الناس "يذهبون زرافات ووحدانا لجمعه في الأكياس ثم يعودون به ليطبخ في المراجل مع الماء والملح [8]، وبعد استخراجه من القدر، يوضع في السطوح، وفي الأماكن المشمسة من أجل تجفيفه ومن تم أكله . ومع ذلك فإننا نعتبر أكل النباتات والجراد من الأشياء الشائعة وخاصة بالقرى وإن كانت تبدو اليوم محط استغراب وتعجب، وإليك عزيزي القارئ ماسيثير دهشتك.

بيع الشخص لنفسه

من الأشياء التي لا يمكن أن يصدقها عقل، ولا يمكن قبولها هو إقبال المغاربة على بيع أنفسهم أيام الجوع وهو ماحصل في مناطق كثيرة من المغرب خاصة آسفي وأزمور خلال مجاعة 1521وهاهو رودريكس الشاهد العيان، يحكي مارأته عينيه "وكان قاطنو تلك الدواوير يهاجمون دواوير بعيدة لاتدين بالولاء للتاج البرتغالي، وياسرونهم . ولم يكن البيع يقتصر على أولئك الأسرى المجلوبين بالقوة، بل كانت أعداد أخرى كثيرة تأتي من تلقاء نفسها وعن طواعية إلى حد أنه حينما وصلنا الى أزمور كان في النهر ماينا هز مائة سفينة مليئة عن أخرها بالشابات لانعدام الراغبين في دفع أي ريال في شراء الرجال والنساء"[9] لقد فاق العرض الطلب من خلال الصور التي رسمها رودريكس، والخطير في الأمر أن التجار اللذين جاءوا من مختلف الأرجاء للتجارة في العبيد ساروا يشترطون ولا "يشترون سوى فتيات في سن العاشرة إلى الخامسة والعشرين "[10].

وفي هذا المشهد المخيف والمرعب الذي يعبر عن حجم الهول، والجوع وغياب الضمير الإنساني يورد هذا الشاهد العيان روايتين عن صفقتين لشراء المغاربة اللذين يبيعون أبناءهم حيث يقول "وقد انتقلت ورفاقي بين الدواوير، واشتريت من شخص يسكن خيمة ابنته وحفيدته، ودفعت في الأولى اثنين وثلاثين طوشطاو، وفي الثانية ثمانية وعشرين"[11] وهما لا يتجاوزان الخامسة والعشرين، والخطيرفي الأمر هو أن يتسابق شقيقين على بيع أنفسهما أو أن يبيع أحدهما الأخر بقليل من الأموال بذريعة "أنا ومن بعدي الطوفان" وهي قصة طريفة حقا، ومؤلمة تبين الانحطاط الذي وصل إليه المجتمعآنذاك، يقول الشاهد العيان، الذي استغل الفرصة لكي يشتري نصيبه بأبخس الأثمان "فقد اتصل

بي أخوان وطلبا مني أن أشتري أحدهما. وبعد كلمات قليلة، أظهرت لهما ثلاثة طوشطاو فأخذها أحدهما وترك لي الأخر [12]وهذه الحادثة تبين أمرين:

أولهما: ماوصل إليه المجتمع من انحطاط، وموت الأخلاق، إلى حد السماح في الأخ الشقيق وبيعه بالبخس، وهو مايعبر عن عمق الأزمة التي حلت بالمغرب من مختلف الجهات حيث دولة متدهورة، وعاجزة، وتدخل أجنبي انتهى باحتلال العديد من الثغور في الواجهتين الأطلسية والمتوسطية، وغضب الطبيعة، الذي برز مع مجاعة، قاتلة، وفتاكة أجبرت الأدمي على بيع نفسه. وعليه يمكن إدراك حجم الفراغ الذي عانه المجتمع المغربي خلال هذه الفترة لن يغطيه إلا التشبث بالماضي والرجوع إلى الدين الذي تمظهر في تنامي ظاهرة الأولياء والزوايا، ومن أجل هذا، ولأسباب أخرى، انتعشت الحركة الصوفية وأسست الزوايا وانتشرت عبر المغرب في حواضره وباديه وعملت على تأطير المغاربة وملء الفراغ السياسي خصوصا أيام المحن والشدةكما هو الشأن في مطلع القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر [13](وكذلك صعود السعديين الذين استغلوا الأزمة، لتوطيد النفوذ، وبسط السيطرة على المغرب .

ثانيهما : أن الأوربيين استغلوا هول الكارثة التي حلت بالبلاد، وضعف السلطة الوطاسية ليغنموا من تجارة مربحة، وبثمن هزيل لا يتعدى قطع معدودة، لينقلوا الجميلات من الشابات الصغيرات، والشبان الأقوياء لبيعهم بأثمان مضاعفة في بلدانهم، أو لتصديرهم نحو العالم الجديد. ففي سفينة واحدة يقول رودريكس "بلغ أولئك الذين اشتريناهم وأرككبناهم الكرفيلا أكثر من مائة وخمسين شخصا، كان لدوارت رودريكش وحده[بينهم] أكثر من مائة. وغادر النهر وقت إبحارنا أكثر من مائة وخمسين مركبا شراعيا محملا بالعبيد[14] جلهم من أسفي وأزمور ونواحيهما، منهم من باع نفسه طواعية ومنهم من تم صيده واقتيد بالقوة، تحت مباركة حاكم المنطقة يعقوب بن غربية الذي جعل من بيع المغاربة للأجنبي تجارة مربحة حيث كان يخص نفسه بخمس ماكان العراب يجلبونه من أسرى، كما كان ينتقي أجمل الفتيات للاحتفاظ بهن لنفسه، أو لإهدائهن[15]، ومعلوم أن الجوع أرغم المغربي خلال تلك المجاعة على بيع أبنائه قبل بيع نفسه، ولقد كان العرض كبيرا جدا إلى حد أنه لم يعد أي شيء أرخص من الإنسان [16].

وقد تكرر نفس المشهد، وتوافد المغاربة على البرتغاليين إبان مجاعة أخرى ضربت المغرب مابين 1721-1724م وقد كان ذلك بمدينة الجديدة التي كانت خاضعة للاحتلال البرتغالي آنذاك، واستغلال البرتغاليين لأوضاع المتردية لشراء العبيد، خاصة أن الناس يعرضون أنفسهم يورد السيد محمد الأمين البزاز رواية لكولفان (Goulven) حسب هذا المؤلف " للنجاة من الجوع الذي أناخ بكلله، اضطر أعداء الصليب إلى المجيء متوسلين لأهل الجديدة(البرتغالين) ليبيعوا لهم نساءهم وأطفالهم ومواشيهم مقابل حفنة دقيق أو قمح "[17]، ويبدو من خلال نفس الرواية أن العدد كان كبيرا، حيث يقل صاحب نفس الرواية "لم يسبق، كما حدث في هذا الوقت، أن اشترى البرتغاليون مثل هذا العدد الكبير من العبيد المغاربة"[18]

تبديل الدين

من الأشياء التي لن تصدقها أيها القارئ العزيز هو أن المغاربة، خلال أزمة الجوع، وأمام العجز عن المقاومة، يغير العديد دينه وكانوا يدخلون أفواجا، أفواجا، في الديانة المسيحية،حيث " تكثر حالات الردة في فترات الجفاف وانعدام المواد الغذائية لأن المغاربة كانوا يعتقدون أن النصارى يتوفرون باستمرار على المواد الضرورية. فلقد نصب عدد من المغاربة خيامهم حول مازيغن وتنصروا آملين بذلك في تحسين ظروف معيشتهم، ويورد السيد بوشرب نقلا عن الإخباري كويش حالات بعض الذين ارتدوا عن الإسلام وتبنوا ديانة جديدة خاصة المسيحية، وفضلوا الهجرة صوب الديار البرتغالية للعيش هناك وهذا نص كويش" وفي هذه السنة (1521) حدثت مجاعة كبرى سواء بذلك القسم من إفريقيا أو بشبه الجزيرة(ايبيريا)، وكانت جد خطيرة إلى حد أن عددا كبيرا من المسلمين الحلفاء بأسفي وأزمور طلبوا من الملك (دون امنويل) عبور البحر للمجيء إلى البرتغال ليتنصروا ولكي يضمنوا به عيشهم الشيء الذي لم يكن بإمكانهم القيام به ببلادهم آنذاك نظرا للجفاف[19].

إلى هذا الحد وصل الأمر بالمغاربة، التخلي عن الدين والتنصر مقابل لقمة العيش، وطلب ذلك بمحض إرادتهم، التنصر مقابل العيش، إنها علامات الهزيمة والاستسلام والتسليم بالأمر الواقع، إنه اعتراف صريح بضعف المغربي، وعدم قدرة الوطاسيين على الإجابة على حاجيات المغاربة وضمان شروط عيشهم، وبالتالي لم يكن من خيار سوى الردة عن الدين حتى يقبل طلب الهجرة الى البرتغال، لكن للأسف لم يكن مصير هؤلاء المساكين

بالبرتغال أحسن من وضعيتهم بالمغرب رغم التنازل عن الدين فقد ملؤوا لشبونة والضواحي" ومات جلهم من الجوع والبؤس، ذلك أن المملكة كانت تفتقر كثيرا إلى المواد الغذائية[20].

وما إذا كان التنصير والردة عن قناعة، وبقاء أصحابه على المسيحية وعدم العودة إلى الإسلام، فإن مثل هذه الظاهرة تعبر عن حق على واقع مأزوم، وسيكولوجية مهزوزة، مما سيفتح المجال أمام تنامي فكرة العودة إلى الماضي، وأن المصائب التي حلت بالمغرب والمغاربة ماهي إلا نتيجة عن تفشي المنكر، والتخلي عن الدين الحق، وهو مافتح الباب عن مصراعيه لنمو ظاهرة التصوف وانتشار ظاهرة الأولياء والزوايا كمؤسسات اجتماعية تشد بيد المغاربة في الفترات الصعبة كما أسلفنا . هاهو عبد الرحمان المجدوب "نموذج الرجل الذي انعكست عليه أحداث العصر(الغزو البرتغالي لتيط، مسقط راسه(1514)، مجاعة (1521) التي عانى منها كثيرا...الخ)فاتخذ منها موقفا تجلى في ياسه الكبير وشؤمه وعدم تقته في عصره ومعاصريه [21]يقول بعد تجربة مريرة "الخبز يالخبز والخبز هو الإفادة لو ماكان الخبز مايكون لادين لاعبادة"، وهو بذلك يلخص وضعية المجتمع المزرية .

ليس المسلمون وحدهم من أقدم على تبديل الدين، بل اليهود أيضا وقد حدث ذلك في المجاعة العظيمة التي عمت جميع أرجاء المغرب سنة 1721-1724م[22]، وقد بلغ عددهم حوالي 1000 يهودي ممن اعتنقوا الإسلام أملا في التخلص من قبضة الجوع[23]وتكرر الأمر في مجاعة 1780/1779 حيث أن عددا كبيرا من اليهود اعتنق الإسلام [24].

المجاعة وأكل البشروالدواب

من الأشياء الغريبة، التي لا يصدقها عقل هو قدوم المغاربة على أكل لحم البشر، بعدما نفذت كل المخازن والأهراء، ويبست الحقول، وانعدمت الأقوات لم يكن من بديل أمام الأحياء، للنجاة من الموت سوى أكل الموتى من بني جلدتهم، وهو ماحصل مثلا أواخر عام ثلاث وسبعين وألف مع السنة التي بعدها حدثت مجاعة عظيمة بالمغرب ولاسيما فاس وأعمالها[25]، والطاعون الجارف، " وأكلت فيه الجيف وأكل فيه الأدمي بوسط الصفارين ميتا" [26]. مامعنى هذا الكلام ؟

لم يتوقف المؤرخون والكتاب عند هذه الحقائق الصادمة، بشكل كافٍ ولم يعطها حقها بل مروا عليها مرور الكرام، وذلك يعكس في الحقيقة تهرب من عدم إبراز مثل هذه الممارسات المرفوضة دينيا، وأخلاقيا يقول القران الكريم" حرمت عليكم الميتة، ولحم

الخنزير"، لكن الإنسان وقت الأزمة، وفي مرحلة الصراع من أجل البقاء لا يفكر في مثل هذه القيود وما يهمه هو حفظ حياته والبقاء على قيد الحياة، لقد قال عبد الرحمان المجدوب عن حق وصواب " الخبز يالخبز، والخبز هو الإفادة لو ماكان الخبز مايكون لا دين لا عبادة"، فهل تصدق أيها القارئ العزيز أن المغربي المسلم أقدم على أكل الجيف، أي أكل الحمير، والكلاب، والقطط، والبغال، والأبقار الميتة، وكذلك الحية ففي مجاعة 1826/1825م، يشير الرحالة بروك أن سكان طنجة أكلوا جميع كلاب المدينة، وأقدم أهل فاس خلال مجاعة 1661-1662 م، على أكل الحمير ويقومون بجزره على مرأى من الجميع[27]، ويورد البزاز شاهد أخر هو صاحب الابتسام الذي يقول "وفي هذه المسغبة أكل الناس الكلاب والقطط والجيف، كما تهافت الجياع على الاقتيات بجثث الخيول والحمير والبغال والأبقار، التي تركت ملقاة على قارعة الطريق وساهمت في انتشار الوباء في صفوف السكان وزادت في تعميق الأزمة[28]. رغم ورود النص القرآني الصريح الذي يحرم ذلك، لا تندهش من هذا الفعل فعندما يوضع الإنسان أمام خيار البقاء فإنه يعمل المستحيل حتى ولوا كان أكل الميتة، والجثث المتحللة .

قد يقول قائل وما العيب في أكل الميتة، في ظرف تصبح فيه الضرورات تبيح المحظورات، ونحن أيضا قد لا نمانع في ذلك، لكن أن يصل الأمر إلى أكل الأدمي، فذلك يبقى غريبا، وعجيبا حقا وهذا ما وقع بعد المجاعة المذكورة أعلاه يقول الناصيري" أكل الناس فيها الجيف، والدواب والأدمي"[29]،ويضيف الضعيف في تاريخ بان الأدمي أكل بالصفارين القريبة من القرويين بفاس جهارا[30]. ومرة أخرى تطرح مسالة الأخلاق، والقيم إلى الواجهة، ويبدو أن الأزمات العنيفة، والمجاعات الكبيرة، تسقط الطابوهات، وتحلل المحرمات، وتصبح الأمور والمسائل الغريبة في أوقات الوفرة عادية في الأوقات العصيبة مادام الوضع يفرض ذلك .

ففي سنة 1295هـ /1878م حدثت مجاعة رهيبة عمت المغرب والقطر السوسي على الخصوص، ولم يجد الناس مايأكلون إلا لحم الأدمي، وأكل الأب لحم أبنائه الصغار، وكم من واحد طمع في أكل جسد امرأة ضخم، ونيئ،في مشاهد مثيرة، مرعبة، ومقززة، تعبر عن انحطاط المجتمع.

لكن الأمور فاقت الخيال، وبلغت حدا لا يتصور، فلم يكتفِ المغاربة الجوعى بأكل البشر كما أسلفنا، بل وصل به الجوع إلى درجة نبش القبور وأخذ ما بها من موتى لسد الرمق

وحتى لا يتهمنا من يطلع على هذه المقالة، بقول الأمور الغريبة، وكتابة مالنا علم به، وإنما ذلك من صنع الخيال، هاكم ماقاله فقيه، تقي يروي، ماحصل في هذه السنة بايت باعمران جنوب المغرب، والعهدة عليه، وهو السيد محمد بن عبد الله البوشواري: "مما وقع في هذا العام أن بني بعمرانة(أيت بعمران) قد أكلوا لحوم الموتى . وجبذوهم من القبور وأكلوهم. وقيل لي بعث واحد منهم إلى امرأة جسيمة ضخمة حتى وصلته فذبحها وأكلها. ثم سأل أهلها عنها ففتشوا داره فوجدوا رجليها ويديها . وقال لي رجل ممن أثق به فقد قوم جارية هذا العام، فسألوا عنها فلم يروا أثرها ولا خبرها .ثم فقدت كلبة سمينة ففتشوا دار امراة في ذلك المدشر فوجدوا رجلي الكلبة في ماعون الملح فقتلوا تلك المرأة، وكم إنسان قتل ولده فأكله وكم من واحد طرح ولده الصغير في موضع وتركه عرضة للضياع، وأكلت أموال المرابطين في السهل، وكم من مطمورة فتحوها وسرقوا ما فيها من الشعير، أو اغتصبوها عنوة عياذ بالله..[31].

ورغم ذلك فإننا نتحفظ على ما ذكره البوشواري رغم أنه شاهد عيان خاصة حديثه عن امرأة" جسيمة ضخمة"، و"كلبة سمينة"، ومعلوم أن فترات المجاعة يصبح الإنسان نحيف ونحيل وحتى الكلاب كذلك لقلة الأكل، ويمكن إن نفهم قول البوشواري على أنه من غرابة ماراه، لم يصدق ذلك وبالغ في الوصف الذي أعطاه. كما يمكن أن يحدث ذلك خاصة إذا كان للمرأة بعض من الذخائر والاحتياط .

ترك الموتى بدون دفن

من المشاهد التي تتكرر مع كل مجاعة تضرب المغرب، هو كثرة الموت، إلى حد الموت في الطرقات، والأزقة، ترك الناس بدون دفن، فكثيرون لم يدفنوا وتركوا عرضة للكلاب، والصقور، تنهش من لحومهم، وهو مرة أخرى ما يعبر عن مدى الوهن والضعف الذي يحلبالناس "إلى حد مخالفة التعاليم الدينية الصريحة، مكرهين فهم يعرفون أن "إكرام الميث دفنه" لكنهم غير قادرين على فعل ذلك كما حدث في مجاعة 1737 "ففي تلك السنة ماتت عامة الناس بالجوع وعجزت الناس عن دفن موتاهم وكانوا يرمونهم في الأزقة والمزابل وغير ذلك"[32]يقول البوشواري"وكم قتيل قتله الجوع أو اللصوص ثم تركوهم من غير دفن فشبعت منهم الكلاب والذئاب[33].

وضع الخبز في الصناديق

لن تصدق عزيزي القارئ أن المغاربة اضطروا الى وضع الخبز في الصناديق لإيصاله من منازلهم إلى الأفران، لأن الجوعى كانوا يأكولونه وهو عبارة عن عجين وهو ماحدث في عام 1724/1721م، "فالجوع بلغ بهؤلاء مبلغه إلى حد أن الجياع منهم كانوا ينهبون عجين الخبز في طريقه إلى الفرن،مما حمل الناس على وضعه في الصناديق، فسمي العام(1721) من أجل ذلك بعام الصندوق "[34].

خلاصة القول إن أزمات الجوع التي ضربت المغرب خلال هذه الفترة جعلت الإنسان أما امتحان صعب، ودفعته إلى القيام بأفعال لن يصدق أنه سيقدم عليها، ولن يقبل بها، لكنه اضطر إلى فعلها من أجل البقاء وحب الحياة، فتخلى مجبرا عن الدين، وأكل مضطرا لحم أعز الناس إليه وفي أحيان أخرى عجز عن دفنهم، بل وصل به الأمر حد ترك دينه للحصول على لقمة عيش.

الهوامش:

1- الأخباري البرتغالي برناردو رودريكس شاهد عيان على مجاعة 1521م، ضمن برنار روزنبرجي وحميد التريكي "المجاعت والأوبئة في مغرب القرنين 16و17م" الوثيقة 1ص 276.

2- انظر على سبيل المثال ماحصل عام 1094هـ نشر المثاني لاهل القرن الحدي والثاني" لمحمد بن الطيب القادري ، تحقيق محمد حجي، أحمد التوفيق،نشر وتوزيع مكتبة الطالب،الطبعة الاولى،1407/1986م،ص،ص،312،311" تاريخ الضعيف" لمحمد الضعيف الرباطي ص 65

3- أحمد بوشرب" مغاربة البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم 36، ص47

4- عبد العزيز باحو" الجفاف المناخي بالمغرب : خصائصه وعلاقاته بآليات الدورة الهوائية وأثره على زراعة الحبوب" بحث لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافيا، جامعة الحسن الثاني المحمدية، 2002 ،ص 113، بتصرف.

5- أحمد بن خالد الناصري " الاستقصاء..."، ص61

6- برنار روزنبرجي وحمبد التريكي "المجاعت ولأوبئة في مغرب القرنين 16و17م"،ترجمة عبد الرحيم حزل،منشورات دار الآمان،الطبعة الثانية 1413هـ/2010م، ص 176،ص 177

7- محمد حبيدة "المغرب النباتي الزراعة والأغذية قبل الاستعمار"، تقديم عبد الأحد السبتي، منشورات ملتقى الطرق،2018،ص 90.

8- بوجمعة رويان" الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، مطبعة الرباط نت، 2013،ص،45.

9- نفس المرجع،الوثيقة 1 ص 277.

10- نفسه، ص 278.

11- نفسه، نفس الصفحة.

12- نفسه المرجع، ص 279.

13- عبد المجيد قدوري " المغرب وأوربا..." ص 254.

14- برنار روزنبرجي وحمبد التريكي "المجاعت ولأوبئة في مغرب القرنين 16و17م" الوثيقة 1 ص 279.

15- نفس المرجع،، ص 277،278.

16- محمد رزوق" دراسات في تاريخ المغرب"،إفريقيا الشرق، 1991،ص 13.

17- محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"،منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم، 18،ص 40.

18- نفس المرجع،نفس الصفحة.

19- أحمد بوشرب" مغاربة البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم 36، ص56.

20- أحمد بوشرب "مغاربة البرتغال.."،نفس المرجع، نفس الصفحة.

21- أحمد بوشرب مغاربة البرتغال..."نفس المرجع، ص44.

22- محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم، 18،ص 38

23- نفس المرجع، ص: 38.

24- نفس المرجع، ص: 75.

25- أحمد ابن خالد الناصري" الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى"، الجزء السابع، ص: 104.

26- محمد بن الطيب القادري" نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي،وأحمد التوفيق، نشر وتوزيع مكتبة الطالب، الطبعة الأولى 1986/1407م، ص: 134.

27- برنار روزنبرجي، وجمال التريكي " المجاعات والأوبئة ..."، مرجع سابق، ص: 144.

28- محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم، 18،ص122.

29- أحمد بن خالد الناصري" الاستقصاء..."، ج،7، ص 104.

30- محمد الضعيف الرباطي" تاريخ الضعيف، ص،ص 32،13.

31- المختار السوسي" المعسول" ج، 17، ص، 259

32- محمد الضعيف الرباطي " تاريخ الضعيف(تاريخ الدولة السعيدة"، تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد عماري،دار المأثورات، الرباط،ص 125

33- المختار السوسي' المعسول "،ج،17،ص259

34- محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم، 18،ص 38.

قائمة المصادروالمراجع

1)- أحمد ابن خالد الناصري" الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى"، الجزء السابع.

2)- أحمد بوشرب" مغاربة البرتغال خلال القرن السادس عشر"، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم 36.

3)- برنار روزنبرجي وحميد التريكي "المجاعت ولأوبئة في مغرب القرنين 16و17م"،ترجمة عبد الرحيم حزل،منشورات دار الآمان،الطبعة الثانية 1413ه/2010م.

4)- بوجمعة رويان" الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، مطبعة الرباط نت.

5)- محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"،منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة : رسائل وأطروحات رقم، 18

6) - محمد بن الطيب القادري" نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي،وأحمد التوفيق، نشر وتوزيع مكتبة الطالب، الطبعة الأولى 1407/1986م.

7)- محمد حبيدة " المغرب النباتي الزراعة والأغذية قبل الاستعمار"، تقديم عبد الأحد السبتي، منشورات ملتقى الطرق،2018.

8)- المختار السوسي' المعسول "،ج،17.

9)- محمد رزوق" دراسات في تاريخ المغرب"،إفريقيا الشرق، 1991.

10)- محمد الضعيف الرباطي " تاريخ الضعيف(تاريخ الدولة السعيدة"، تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد عماري،دار المأثورات، الرباط.

11)عبد العزيز باحو" الجفاف المناخي بالمغرب : خصائصه وعلاقاته بآليات الدورة الهوائية وأثره على زراعة الحبوب" بحث لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافيا، جامعة الحسن الثاني المحمدية، 2002.